المحاضرة الثانية المنهج التاريخي الوصفي

ويعني تتبع نشأة وتطور الأفكار والمذاهب الدينية من خلال المراحل التاريخية المختلفة، وتحديد الدور الذي لعبته العوامل المختلفة التي تعامل معها الدين أو الأديان في هذه المراحل.

هذا المنهج يسلك فيه المؤلفون جانب العرض التاريخي الوصفي السردي، دون حكم على المقولات، أو نقد لها، حيث أصَّل علماء الإسلام هذا المنهج، ثم طبقوه بموضوعية ونزاهة على أديان العالم المختلفة، فكان لهم سبق كتابة تاريخ للأديان في الفكر الإنساني كله، قبل أوروبا بأكثر من عشرة قرون، مثل أبى عيسى الوراق (من مفكري القرن الثالث الهجري) الذي كتب في الوصف والتأريخ كتابه: (مقالات الناس واختلافهم)، والنوبختي في كتابه: (الآراء والديانات) ، وأبو المعالي العلوي في كتابه: (بيان الأديان)، وكتب كثيرون كتباً بعنوان (الملل والنحل)، مثل البغدادي أبى منصور، والشهرستاني، كما أن هناك من غير المسلمين من سلكه، وهو ابن كمونة اليهودي، في كتابه: (تنقيح الأبحاث للملل الثلاث).

والحقيقة أن هذا المنهج لا يؤدي الدور المطلوب من العالم، بل إن مثل هذا المنهج قد يؤدي إلى ما يسمى بتقارب الأديان، وربما كان هذا المنهج أوفر مناهج المسلمين حظاً وإشادة عند علماء الغرب، وبه يرتضون أن يتناول علماء الإسلام الأديان.

البيروني والمنهج التاريخي

هو محمد بن أحمد البيروني المكنّى بأبي الريحان (٣٦٢ ـ ٤٤٠هـ)، من أشهر العلماء في حقل العلوم والمعرفة في نطاقها الموسوعي؛ فهو الرياضي والفلكي والجغرافي والصيدلي والمؤرخ والدارس المتخصص للأديان والثقافات.

أراد البيروني رحمه الله بكتابه: (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) أن يطوّر معرفة المسلمين ببقية الأديان، وقامت دراسته على عمل ميداني هو المعاينة والحكاية والمقارنة، وكان عمله بمثابة بحث استطلاعي مهد لانتشار الإسلام في الهند، انتهج في الكتاب منهجًا جنبه التعصب والتعميم.

تناول البيروني رحمه الله بالتحليل والنقد مناهج المسلمين في دراسة الأديان وما تعلّق بها من طقوس وتقاليد، وصنف هذه المناهج إلى ثلاثة ضروب:

الأول: السماع بما هو مشافهة.

الثاني: الكتابة بما هي تدوين.

الثالث: المعاينة بما هي ملاحظة وتفكر.

ولئن فضل البيروني المصادر المكتوبة على المصادر الشفوية في مادة الأديان فإنه جعل كليهما في مقام دون المعاينة، ويبدو أنه كان على يقين بأن المكتوب كان في البدء شفويا واختلط فيه لحظة التدوين الأسطوري بالواقعي، ولعبت فيه الذاكرة الدينية الجماعية دورا في رسم معالم الذي يخالفنا في المعتقد.

تمثل الأخبار المدونة عند البيروني رافدا مهما في معرفة بقية الحضارات والديانات: فمن أين لنا العلم بأخبار الأمم لولا خوالد آثار القلم، ولكن هذا الرافد المعرفي محدود الآفاق ومليء بالنقائص، كونه يجمع صحيح الأخبار وفاسدها ويمزج بين الواقع والخيال، وعلى هذا الأساس نظّر لمنهج يقوم أساسًا على المعاينة فاستهل مقدمته بقوله: إنما صدق قول القائل ليس الخبر كالعيان، ويبدو أن اعتماد قول قائل يميز بين الخبر والمعاينة يعني أن هذا المنهج ليس من ابتكار البيروني بل هو وجه من وجوه

الثقافة العربية الإسلامية، ولكنه وجه خافت لا يكاد صوته يُسمع أمام هيمنة ثقافة السماع ومنهج المأثور.

حدد لنا البيروني مقاربته المعرفية التي اعتمدها في كتابه فجعل عملية الإدراك تتحقق من خلال قناة العين كما اشترط في موضوع الإدراك (المدرك) بما هو مجموعة من الظاهرات الثقافية والاجتماعية والدينية أن يكون محددا من حيث الزمان والمكان، فليس من المفيد أن نتحدث عن أديان وثقافات ولغات افتراضية ابتكرها الخيال ورسمت معالمها الذاكرة دون أن ندركها معاينة في سياقها التاريخي، ولقد نبه البيروني إلى ارتباط الخبر بحالة الإخباري ومشاغله، فهو إما متعاطف مع الملة موضوع الدرس أو متحامل عليها وهذا يؤثر في طبيعة الأخبار وصدقها وكأن الباعث على فعله من دواعي المحبة أو الغلبة أو من دواعي التحامل والغضب المذمومين، والملاحظ أن صاحب الكتاب أدرك أهمية التحرر من أسر العاطفة الدينية والتخلص من ثنائية المذموم والمحمود في دراسة الأديان دراسة موضوعية، فإن الغاية من دراسة الأديان بهذا المعنى لا تعني بالضرورة الانتصار لدين دون آخر، أو بيان عيوب منظومة عقدية دون غيرها، وعلى هذا الأساس انتقد البيروني سابقيه ممن اهتموا بحضارة الهند وتقاليدها الدينية، ورأى أن أكثرها منحول وبعضها عن بعض منقول وملقوط مخلوط غير مهذب على رأيهم ولا مشذب، ولذلك أقر البيروني بكل جرأة وصرامة بأنه لم يجد من أصحاب كتب المقالات أحدًا قصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مهادنة.

إن البحث الموضوعي في هذا المجال يتطلب حسب رؤية البيروني اعتماد منهج علمي ميداني لا يقوم على المعاينة فحسب بل كذلك على الحكاية، وقد ألزم البيروني نفسه أن لا يقحم نفسه في خطاب حجاجي يقوم أساسًا على مجموعة من الثنائيات من قبيل التقبيح والتزيين والحمد والذم والتصويب والتخطيء، فهذا الزاد الحجاجي سلاح من أراد الانتصار لملته وليس زاد العلماء الباحثين عن الحقائق، والبيروني رجل علم وعقل

لذلك أراد أن يجعل من كتابه كتاب حكاية، يقتصر فيه على نقل ما رآه في بلاد الهند من ظاهرات دينية وثقافية واجتماعية وما سمعه من خاصتهم وعامتهم وما قرأه في كتبهم بلسانهم وآية ذلك أن يورد كلام الهند على وجهه، وحتى يتسنى له معرفة معتقدات أهل الهند ومحاكاة ما رصده من طقوس وممارسات كان لزاما عليه أن يتطهر من كل الرواسب المعرفية المتعلقة بموضوع دراسته، وأن يقبل على علمائهم ورجال دينهم مستفسرا ومتعلما بل نجده يصرح دون حرج كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتي فيما بينهم وقصوري عما هم فيه من مواضعاتهم، فلما اهتديت قليلا لها أخذت أوقفهم على العلل، وأشير إلى شيء من البراهين، وألوح لهم الطرق الحقيقية في الحسابات فانثالوا على متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين يسألون عمن شاهدته من الهند حتى أخذت عنه، وأنا أريهم مقدراهم وأترفع عن جنبهم مستنكفًا، فكادوا ينسبونني إلى السحر ولم يصفوني عند أكابرهم بلغتهم إلا بالبحر.

لقد عاش البيروني في الهند وتجول في أرجائها، وتعلم لغتها وأتقنها، وحاور علماءها، واختلط مع عوامها، وحضر أعيادها ومواسمها وشاهد معابدها كما شهد مناسكها وقضى في كل ذلك ثلاثين عاما على اختلاف الروايات حتى أذهل علماء الهنود أنفسهم بسعة علمه، وعلو مرتبته وكمال فهمه وترجم إلى العربية بعض كتبهم كما ترجم إلى لغة الهند بعض التراث اليوناني والإسلامي حتى أظهر في النهاية كتابه تحقيق ما للهند مسك الختام على أبدع ما يكون المنهج.

ومما يمثل لمنهج البيروني رحمه الله في بيان منهجه ما أورده في حال الأرواح وتردّدها بالتناسخ في العالم، فيقارن الديانة الهندية ببقية الأديان من خلال رموزها التأسيسية، وكما أن الشهادة بكلمة الخلاص شعار إيمان المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والإسبات علامة اليهودية، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية فمن لم ينتحله لم يكن منها، وهذا الضرب من المقارنة يعكس القدرة على التأليف واختزال الديانات في

علامات دالة عليها. ويبدو أن هذا الأسلوب ييسر فهم الظاهرة الدينية المدروسة ويمكن القارئ من تبين خلفياتها.

وتتجلى الموضوعية عند البيروني في دراسته للأديان في كتابه (تحقيق ما للهند) من خلال السمات الآتية:

السمة الأولى: إتقانه للغة السنسكريتية، وهي اللغة التي كتبت بها الكتب المقدسة عند الهندوس وإقامته الطويلة في الهند.

السمة الثانية: علاقته المباشرة مع موضوع دراسته ومعرفته للفلسفة ودراسته له، فتكوينه الفلسفي أهله للخوض في قضايا الفكر الديني الهندي الذي يمتزج بالفلسفة، فضلا عن بذله أقصى الوسع في دراسته للمعتقدات الهندية، فقد بذل البيروني جهدا كبيرا في دراسته للفكر الديني الهندي، ويعبر البيروني عن ذلك بقوله: "وقد أعياني البحث فيه، مع حرصي الذي تفردت به في أيامي، وبذلي الممكن، غير شحيح عليه في جمع كتبهم من المظان، وقد اتبع البيروني المنهج الوصفي في دراسة الفكر الهندي، يقول: وأنا في أكثر ما سأورده من جهتهم حال غير منتقد إلا عن ضرورة ظاهرة".

السمة الثالثة: رجوعه المباشر إلى المصادر الدينية المعتمدة لدى الهنود: فقد استطاع البيروني أن يعيد صياغة التصورات العامة التي صبغت صورة الهند لدى العديد من المؤلفين المسلمين، والتي غلب عليها الكثير من التزيين المبالغ فيه، ويرجع بعضهم سبب ذلك إلى بعد المسافة، وغرابة الحضارة، وندرة المعلومات.